

يتجمعون ليفزوا إيطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكتهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة بدفعهم فجاءوا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا أن دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة إليه في القاصية بيد أنهم لنقص فيهم حرفوا ما تلقوه ولم يعملوا بتعاليمه فاتوا مظالم كثيرة حتى اضطرت الباباوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا إلى القوة علماً منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيراً إن لم يكن وراءه سلطان القوة.

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصاً عليه ثم كثرت البدع والإلحاد وقاومها الباباوات بالشدة وإن جاء من هؤلاء أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحياناً.

ولقد كانت إيطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين الباباوية والإمبراطورية فنتج عن ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع إليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد ألف سنة للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي إلى الحماسة الدينية حب الظهور والإتيان بالفرائب والاسيما في نفوس العامة والزعماء من الأمراء. ولكن حرب المسلمين قرنين باستعادة الأرض المقدسة لم ينتج منه إلا أن جمهوريات إيطاليا أصبحت لها مكاتب تجارية على شواطئ البحر المتوسط وباختلاط إيطاليا بل أوروبا بالمدينة الشرقية البديعة عاد إلى الغرب شيء من الحياة أصيبت به الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية في إيطاليا اثر تقاليد اليونان المغلوبين على أمرهم في مدينة روما.

إيطاليا في القرون الوسطى

جاء عهدان على روميا طمحت فيهما إلى أن تحكم العالم فالأول على عهد عظمة قيصرية الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني وبلوغ سلطة الباباوات حدها. وكان من اثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البيزنطية والمغربية أن تمت لهم مقدمات النهضة الأولى. ثم إن المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسرا فأخذت تتنافس في إقامة الأبراج وتجب كل منها أن تكون كنيستها أوسع وأكثر بهجة واغني وخطيها أشهر ومفنن أشهر. وأنشأت تبحث عن الرجل الذي يكون اقدر من غيره على التضفي بأمجادها في أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم. وبفضل هذه المباراة اغنت المدن والقرى من معاهد البديعة فكت ترى الكنائس الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الأرض إلى الأجواء.

وانتشر في شبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقي للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التي لم تزل تهرنا إلى اليوم فكان هذا العهد مناسبا لتكوين أعظم الرجال ليستطيعوا أن يحثوا أعمالا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين ديسين والقديس توما دي أكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر اثر يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الأولى متشعبة بالفكر الديني إلا أنها كانت تحوي في مطاويها بذورا انبتت بعد النهضة الثانية.

وقام على الأثر الشاعر دانتي الايطالي واضع أسس اللغة الايطالية الحديثة واخذ ينادي في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية. ينطق في ذلك بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكذب يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الأثر أرباب الأفكار الحديثة ممن اخذوا يترعون ربة الدين بل ينحون على جوهه. وكان في هذا القرن أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم

من كانوا يصورون وينقشون حبا بانجد والشرف والمال خصوصا وهم يرون كم كانت أسرة ميدسيس إذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع. حتى لقد قيل أن رافاييل المصور رفض انيكون بابا واثرا العمل بالتصوير. وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذي كان من أكرم الباباوات وأكثرهم علما وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الأفكار الحديثة واخذوا يشرون من طرف خفي بتحكيم العقل في المسائل فأصبح أهل العلم والأدب مرغوبا فيهم أكثر مما يرغب في الأمراء. وساعدهم اختراع الطباعة إذ ذاك فاخذوا يثبون أفكارهم في روح القوم على صور مختلفة حتى غدا أمثال برج وفيللف وارتن الحاكمين التحكمين بالأفكار في عصرهم بصرفوفا كما يشاءون.

في ذلك العهد أيضا نشأ للطلين أمثال المؤلف لورانزو فاللا فخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدما تذكر له على الدهر ومثله جيوردانو برنو الذي احرق بأفكاره الفلسفية وكان عالما كاتب مؤثرا وبينما كانت الأفكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر ومنشئها من بيع الغفرانات واستئثار الباباوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شيء في رومية في الأمر الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن يزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوي والفلاسفة والأدباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلما كان المجتمع يدخل في طور الكمال كانت الحالة تستدعي تقسيما أكبر في العمل وتوجيه المناحي وجهاتهما حتى أن أكثر من واحد من المتدينين جدا قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت ألمانيا وانجلترا عن روميا.

كان العلم في أواخر القرن السادس عشر قليلا وقام أمثال غاليله الذي قال بدوران الشمس حول الأرض فوذي لما نادى باراه العلمية وأن التجربة هي الشرط الضروري في تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد في عقله العجيب هذا الأسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها واخذ مكيفيللي واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتي يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن الدينية كان العالم غليله يثبت بان العالم العلمي يجب أن يكون منفصلا ومستقلا على الاعتقاد الديني وهكذا لم يبرح غليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط. ويرى أن الكنيسة هي الحاكمة في المسائل الدينية وليس لها أجنى سلطة في المسائل العلمية وينبغي لها أن تحاذر من الحكم في مسائل هي غريبة عنها تماما.

رأت الكنيسة بعد عصر دانتي أن تحافظ على كيانها الأساسي بالقوة وأرادت ابعث غليله أن تحافظ على كيانها العلمي بالعلم خصوصا بعد أن شاهدت النتائج التي تمت على أيدي اليسوعيين بانحاذهم العلم آلة للدين. واتحدت الكنيسة مع الأمراء وأخذت تلقم الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وامن الناس ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الإصلاح الديني بقيام لوثيروس ونزع ألمانيا والمجلترا من الكنيسة الكاثوليكية أن الانحطاط اخذ ييدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لان العلم كان محدودا عند هؤلاء الشعوب ومقصورا على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبدا يرغب فيه فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادي كان مضمونا بما انشأ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التبت والتراجع.

وعلى عهد مل هذه الإدارة يتزل ميزان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لا ترتقي إلا ببطء حتى أن الشاعر كيودي المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذلك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربري الذي كان يشاهد من خلال إهمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون إلا بفتح العالم. ومن حسن الحظ أن إيطاليا لم تعد في ذلك الدور أناساً ينهضون هنا وهناك يشيرون العواطف وينادون قومهم بأن ما هم فيه باطل لا بد له من التجديد وإن هذا العالم ليس عالم الأموات. فقام بتروميكا بالدفاع عن تورينو وقام فيليكيا يتغنى باغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرية ونقض الأمير اوجين دي سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة واخذ كاريا يقيم الحجمة على فظائع المحاكم وقام غيره بأعمال كثيرة نهوا فيها العقول من رقادها ما أمكن.

#### إيطاليا في القرن الحديثة

بينا كانت إيطاليا غارقة في هذا السبات كانت أفكار غالبية قد وصلت إلى انكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت إلى إيطاليا منعكسة من طريق فرنسا في كتابات الفيلسوف ديدو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف سنة (١٧٥١-١٧٧٢) فأحدث حركة في أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من لفرنسيس أملين أن يروا منها سلاحاً يحاربون به رجال الكهنوت والإشراف إما العامة فقد اسعملوها واسطة للإرهاب. وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لأن فرنسا كانت مسعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ما تكون ثم أن صلاحاً مع الشعوب البروتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها.